المرأة في شعر محمود مفلح
The Woman in Poetry of Mohamoud Mofleh

د. خضر محمد أبو جحجوح
أستاذ مشارك بالجامعة الإسلامية–غزة
Khader.jah@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/12/19	تاريخ القبول: 2019/01/11	تاريخ النشر 2019/02/10

ملخص البحث

يسعى هذا البحث إلى استكشاف طبيعة ظهور دالّ المرأة، وكيفية التعامل مع دلالاته في شعر الشاعر الفلسطيني محمود مفلح. الذي يعدّ من شعراء القضية الوطنية الفلسطينية، لأنه أحد الشعراء الذين عاشوا النكبة وجايلوا الشعراء الرواد، باستقصاء مجموع أشعاره في الأعمال الكاملة التي ضمت مجموع نتاجه الشعري. باستخدام المنهج الوصفي التحليلي الذي ينطلق من النصوص ويجلي جمالياتها. من أجل إثبات النزعة الإنسانية في التعامل مع قضية المرأة، وبيان الزوايا التي نظر إليها من خلالها، بما لا يتنافى مع طبيعة الشعر الفلسطيني الذي كتبه ذلك الجيل دون تناقض مع وصفه بالتمسك بأساسيات المقاومة الأدبية..

كلمات مفتاحية/ المرأة، مفلح، شعر، فلسطيني

Abstract

This research aims to explore the nature of the signifier of women, and how to deal with its significance in the poetry of the Palestinian poet Mahmoud Mufleh, who is considered one of the poets of the Palestinian national cause, as one of the poets who lived in the Nakba, and he is a generation of pioneers the leading poets, investigated his poetry in full works, which included his poetry, using an analytical descriptive approach that stems from texts and demonstrates their aesthetics. In order to prove the humanitarian tendency in dealing with the issue of women, and to identify the angles through which it was viewed, not inconsistent with the nature of Palestinian poetry written by that generation without contradicting his description of adherence to the fundamentals of literary resistance

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تمهيد

شغلت المرأة حيزا من اهتمام الشعراء على مر العصور، فمنذ العصر الجاهلي كانت المرأة الزوجة شريكة الرجل، ومعشوقته، ورمز الجمال الآسر الذي يحرك فيه مشاعره، ويهز كيانه، حتى بات المطلع الغزلي سمة بارزة من مميزات العمود الشعري، وصار الغزل غرضا من الأغراض التي يتغنى به الشعراء ويعبرون عن ميولهم العاطفية، ولواعجهم " لأنّ التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبّة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلّقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم، حلال أو حرام"[1] ومن أولئك الشعراء من عف لسانه وترفع عند ذكر النساء ومنهم من أفحش وبالغ في الوصف الحسي، يقول ابن سلام: "فكان من الشعراء من يتألَّهُ في جاهليته ويتعفف في شعره، ولا يستبهر بالفواحش، ولا يتهكَّم في الهجاء... ومنهم من كان ينعى على نفسه ويتعهرُ منهم امرؤ القيس"[2]

"ولقد تبارى الشعراء في رسم صورة المرأة من حيث جمالها ووصفها كأنها تمثال تنافس الشعراء في نحته وتجميله"[3]

كان امرؤ القيس الشاعر الخليع يعشقها جسدا بضا جميلا مفعما بالجمال مكتنزا باللحم، كما يعرف من يقرأ معلقة امرئ القيس، ويتوقف عند مواطن التشبيب بالمرأة فيها، ولا أدل على ذلك من وصفه لأحداث يوم دارة جلجلِ وذبح ناقته للفتيات وركوبه خلف ابنة عمه على بعيرها حيث يقول:

ويومَ دخلتُ الخدرَ خدرَ عنيزة فقالت لك الويلات إنكَ مُرجلي

تقولُ وقد مالَ العَبيطُ بنا معاً عقرتَ بعيري يا امرأ القيس

وكثيرٌ من الأبيات التي وصفَ بها جمالَها ومفاتنَ جسدها، وتسلله إلى خبائها ليلا، وتجاوز الحراس ليصل إليها، فيجدها تستعد للنوم في خيمتها، وهي تلبس فضلة ثياب النوم، فخرج بها خارج ساحة الحي للهو والمتعة.[5]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومثله المنخل اليشكري، والنابغة الذبياني والأعشى وغيرهم من شعراء الغزل الحسي الذين جاءوا على مر العصور الأدبية، ومن ينعم النظر في ديوان النابغة الذبياني –على سبيل المثال– يجده مفحشا في وصف محاسن المرأة، ومن أبياته المشهورة قوله:

نظرت بمقلةِ شادنٍ متربِّبِ أحوى أحمَّ المقلتين مقلَّدِ

والنَّظْمُ في سلكٍ يُزَيِّنُ نَحْرَهَا ذَهَبٌ توقَّدَ كالشِّهابِ الموقدِ[6]

والأبيات التي تليها تصف المرأة وصفها حسيا، فاحشا لم يترك شيئا من جسد المرأة إلا وصفه. حتى عورتها التي تترفع الشعراء عن ذكرها[7] ولعلَّ مردَّ ذلك الإفحاش المخالف لطريقة العرب وحيائها لأنه "أفحش في بعض نسيبه إفحاشا كأنه روميٌّ أو فارسي، لطول ما صحب المناذرة والغساسنة"[8] ومع ذلك وجد بعض الشعراء المتعففين في شعرهم، ونسيبهم رائق جميل بعيدٌ عن الوصف الحسي المباشر، فهذا عنترة الفارس العفيف يتذكر عبلة أم الهيثم، في وهج المعركة وهو يقول:

يا دارَ عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

دارٌ لآنسة غضيض طرفها طوع العنان لذيذة المتبسمِ[9]

وفي بعض النسخ يتذكر عنترة عبلة عندما حمي الوطيس، وتكسرت النصال على النصال، في مقام تبذل فيه الأرواح إبرازا للقوة والشجاعة، ودفاعا عن الشرف والكرامة، إنَّ عنترة يتذكر طيف عبلةَ بوصفها حبّ روحه، وذكريات صباه التي تلهمه الصبر والصمود، حيث يقول:

ولقد ذكرتك والرماحُ نواهِلٌ منِّي وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارقِ ثغرِك المتبسِّمِ[10]

أما شُعَراء الغزل العذري فالمرأة عندهم روح شفيف تبعث الدفء والحياة، وملهمة توجه المشاعر وتلهب الأحاسيس، فراقها لوعة ونار تكوي الكبد، وقربها أنس وجنة تطفئ غلة العاشق الصادي، وما قيس بن الملوح وجميل بن معمر وأضرابهم عن حالة الوجد والهيام ببعيدة، ودواوينهم شاهدة إلى هذا الزمان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعلى هذا النسق سار كثير من الشعراء في تناولهم لقضية المرأة، وفي بعض الأحيان كانت مادة للمعايرة في الهجاء كما حصل في العصر الأموي الذي ازدهر فيه الهجاء المقذع مع انتشار شعر النقائض، ومحاولة فحول الشعراء الانتقاص من بعضهم بالفحش في ذكر النساء، ومن نماذج ذلك نقائض جرير والفرزدق والأخطل قال جرير في هجاء الفرزدق:

يا شب أمُّك ينخوبيةٌ وقِبِي أزرى بها لهْجمٌ بالصيفِ هدَّارُ[11]

فالشاعر ينعت أم الفرزدق بالحمقاء التي لا عقل لها، وقد كانت أشعار الفرزدق أكثر إقذاعا في هجاء أم جرير مما تعف الدراسة الحالية عن ذكره وستكتفي بالإشارة إلى مكانه في الديوان[12] ومن معايرته لجرير بأمه قوله:

أزرى بجريك أن أمك لم تكن إلا اللئيمَ من الفحولة تَفْحُلُ

قَبَحَ الإلهُ مقرَّةً في بطنِها منها خرجت وكنت فيها تحملُ[13]

واستمرَّ الحَالُ عَلَى النَّحْوِ ذاتِه في العصْرِ العباسي، حيث توزع الموقف من المرأة بين الغزل، والهجاء، في أشعار الفحول مثل بشَّار بن برد، وأبي نواس، والبحتري وأبي تمام، ومن بعدهم المتنبي، وغيره من الشعراء على امتداد العصر العباسي بتفريعاته المختلفة.

وبقيتْ صورةُ المرأةِ ماثلةً لدى الشُّعراء على مرِّ العُصُورِ، لكلّ واحد منهم فيها تجليات رؤيته الخاصة، فهي مبعث الأمل والألم والدفء والمتعة، وهي الأم والزوجة والمعشوقة؛ بل هي الوطن وصانعة الرجال. ولكن لم تبق صورة المرأة داخل إطار الغزل من خلال إبراز المفاتن والتغني بالمحاسن ولوعة الفراق وعذاب الهجر فقط، بل زادت صورتها على ذلك حتى أصبحت قضية لدى بعض الشعراء كل واحد منهم وفق ميوله واتجاهاته، "والشاعر يوظف هذه الميزة ليعرب عن إحساسه ومشاعره ونظرته للحياة؛ باعتبار أنَّ المرأة هي العنصر الفاعل في هذه الحياة"[14] إذن صورة المرأة لم تقف عند حدود صورتها القديمة؛ بل دخلت إلى حيز الرؤية والمبدأ والموقف من الحياة، وهو حيز أكثرُ شُمُولا من الإطار الغزليِّ الموروث، يقول نزار قباني:

"يا سيِّدتي

أنت خلاصة كلِّ الشعر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ووردة كلِّ الحرياتْ
يكفي أن أتهجَّى اسمك..
حتى أصبحَ ملك الشعرِ
وفرعون الكلمات..
يكفي أن تعشقني امرأة مثلك
حتى أدخلَ في كتبِ التَّارِيْخ
وترفعُ من أجْلِي الرايات"[15]

المرأة الأنثى الجميلة هي محور اهتمام الشاعر، وملهمُهُ الشِّعري الذي تتبلور حوله قضيته الشعرية، وتترسخ كينونة وجوده، فبها يشكل مملكته الشعرية التي يطمح إليها كما يتصور حيث يقول: "أنا مؤسس أول جمهورية شعرية، أكثر مواطنيها من النساء"[16] لذلك "لا يمكن لقصيدة ذات مستوى، إلا أن تخدشَ حياءَ المجتمع، أو تزعزعُ قناعاتِه، أو تضرمُ النَّار في أوثانه، وأفكاره، وعاداته."[17]

وقد عبَّرَ الشَّاعِرُ محمود مفلح عن رفضه لنهج نزار قباني في تناوله لقضايا المرأة بوصفها أنثى الشهوة، ودعوته إياها لتخليها عن الحشمة وسخريته من حجابها، حيث يقول في قصيدة سماها (نزار)

رأيتك لا تغيرُ ولا تغار فأيَّ الخيل تركبُ يا نزار؟
تميس كأنَّ في أذنيك قرطاً وحول صقيل معصمك السوار
وتضرب في حسام((أبي رغال)) ويضحك من حماقتك الجدار
تدافع عن حدود عيون ((إلزا)) وحول الخصْر يبتدئ الحصار
فكم حررّت في ((باريس)) نهداً ورفَّ على مواقعك انتصارا!!
تدير الحرب في الحانات حتى تضج كؤوسكم.. ويضجّ عار
تعيب على الفتاة حجاب هدى وتزعم أنَّ فعْلتها انتحار؟
وتسخر من خمار بنات ديني وكم يؤذيك منهنَّ الخمار!

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تريد لهنَّ عُرْيا وانفلاتا فلا نصفٌ لهن ولا إزار! [18]

القصيدة إعلان صريح لرفض الابتذال في تصوير المرأة ومفاتنها، وتمسك بقيم الحياء والخلق في التعامل معها،"فنزار ركز في قصائده على وصف جيد المرأة وتشريح تفاصيله بلغة شعرية"[19]وقد برزت المرأة في شعر المعاصرين قضية ذات أبعاد وطنية، عندذكرها تتداعى صورة الوطن لدى شعراء فلسطين،" إن فلسطين تحضر في شكل أنثى في شعر محمود درويش"[20] دون إغفال الجانب الإنساني والعاطفي لدى شعراء القضية، فهم بشر يتمتعون بمشاعر فياضة، ولم يغفلوا دور المرأة/ الأنثى الأم والمحبوبة والقضية الإنسانية، ومن هنا يبرز الإطار العام لرؤية الشاعر التي انطلق منها في توظيف المرأة في شعره، توظيفا مبنيا على الاحترام والتوقير، والإحساس بالجمال وشفافية المشاعر.

المرأة في شعر محمود مفلح

وقف الباحث في ديوان الشاعر محمود مفلح الموسوم ب(الأعمال الكاملة) وفي عددٍ من دواوينه الشعرية المنفردة التي نشرت قبل طباعة الأعمال الكاملة، على صورة للمرأة تشعر المتلقي بأنّ الشاعر الذي يحمل هم القضية، لا تغيب عن ذهنه قضية المرأة ؛ التي وردت في ثنايا شعره ضمن محاور على النحو التالي: المرأة الأم، والزوجة، والابنة والحفيدة، والأنثى اللعوب، والفنانة، والمحبوبة الملهمة،كما ستعرضها الدراسة.

المرأة الأم

الأم نبع الحنان، ومبدأ التكوين لم تغب عن مخيلة محمود مفلح في غربته، فهذه صورة أمه وهي تناديه شوقا وحنينا في قصيدة (قالت) حيث يقول في مشهد درامي حواري:

قالت هجرت الأهل يا ولدي وهجرت داراً كنت راعيها
وهجرت عصفوراً وزنبقةً وحكاية ما زلت ترويها
وهجرت أياماً بها درجت أغلى الطيور فمن سيؤويها
وهجرت إنّ الهجر يقتلنا والموت يلغينا ويلغيها
وتركتنا للرّيح عاصفةً ودروبنا بالقهر نمشيها[21]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يعتصرُ الشّوق الأم فتقول في لهفةِ من كابدَ ألمَ الفِرَاق: كيف هان عليك يا ولدي أن تهجر أرضك وأهلك وطيورك وأشجار موطنك، وتتركنا للقهر والألم نكابد ألم الرحيل والفراق معا، ثم تتوجه إليه بلهفة وشوق قائلة:

"محمود" إنّ حياتنا نكدٌ جفَّ الهوى... جفَّ الهوى فيها
هل أنت في "نجران" عوسجةٌ والشمسُ بعد الشَّمسِ تكويْها
ما بالُ قلبِكَ لا يَرِفُّ لَنَا وهنا خطاكَ البِكْرُ نُحْصِيهَا
إنَّ القُلُوْبَ عليكَ واجفةٌ "والفتح" طولَ الليل نتلوها
جاء الصبَّاح أما شغفت به؟ والقهوة السمَّراء تحسوها
ها إنَّها بردت وما وصلت تلك الأنامل كي تناغيها
وجبالنا بالسَّحر غارقةٌ وسهولنا جنَّت أقاحيها
والأرض قد فاضت مواسمها هذي المواسم من سيجنيها؟![22]

لوعةُ الأمِّ لفراق ابنها تدفعها للتساؤل بلهفة عن حاله وتقلبات أحواله من جهة، وبيان حال الشَّوْقِ واللَّهْفَةِ لغيابه، فالقلوب ملتاعة، والألسنة تردد طول الليل آيات القرآن الكريم، مع ابتهال ودعاء له بالتوفيق والسلامة، وقسط من الحنين فهي تتمنى أن يكون بجوارها يتناول قهوة الصباح ممزوجة مع الحبِّ ، والمناغاة، وحنين السهول والجبال والشجر. والشاعر يميل إلى منح النص حسا دراميا حين يمنح الأصوات مجالا لتبادل الدور الحواري في النسق الشعري، ففي المقطع التالي يتبادل الشاعر الصَّوت مع أمِّه التي تحنّ إليه حيث يقول:

أُمَّاه يا لفظاً على شفتي أغلى من الدُّنيا ومن فيها
أُمَّاه والأشواق جامحةٌ كم ذا أكابدها أعانيها
إنِّي وربِّ البيت ألثمها إنِّي وربِّ البيت أغليها
تلكَ الرُّبوع بأضلعي نبتت أعشابها بالدَّمع أسقيها
أنفاسكم بالدَّمع أخلطها ووجوهكم بالرِّمش أحميها
أخطو فتهديني ملامحها كم كنت قبل اليوم أهديها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أخشى على كبدي فأمسكها وخناجر الأيام تفريها
وتظل قافيتي مغِّردةً صوب الشمال يضج حاديها
صوب الذين تركتهم أنفاً كالخيل ما ذلَّت نواصيها
باقون كالأشجار شامخةً هيهات ريح الظلم تلويها
تلقي على الأحباب زفرتها فتهزُّ قاصيها ودانيها
كم ذا سكبت بأحرفي شعلاً فقصائدي حُمْرٌ قَوافيها[23]

انتقل الصوتُ الشِّعري في المقطع باتجاه درامي انعكاسا للصوت السابق، ليبرز حميميَّةَ العلاقةِ بين الشاعر وأمه، وشدة اللهفة والشوق المتبادل فكما تعيش أمه حالة وجدانية من ألم الفراق بما يصحبها من شوق وحنين، تحمل نفس الشاعر المغترب عن أهله وأمه تحديدا مشاعر حنين وشوق لأيام الذكريات. فأمه لفظ أغلى عنده من الدنيا وما فيها، وشوقه بحر يكابد فيه ألم الفراق، وحنين الذكريات، إنه يخشى على كبده أن تنشطر من شدة شوقه، للوطن والأحباب الشامخين كالأشجار، المتجذرين في الأوطان بصبر وثبات، ودموعه تنثال شوقا، وكلمات قصائده تترجم مع الدموع، ما اشتعل من ألم الفراق في القلب. ويواصل بعد بثه مشاعر الشوق والحنين، صوت الألم ليبرز مدى المعاناة التي تحاصره بهمومها في غربته وهو بعيد عن الأهل الذين يعانون، كما يعاني:

أُمُّاه والدنيا جلاوزة[24] والناس قد فحَّت أفاعيها
من أين لي صوتٌ وحنجرةٌ والنَّاعقون تزاحموا فيها
داروا مع الطَّاحون دورته أحداقهم ضاعت مراميها
أنا كلَّما أطلقت أشرعتي وصرخت "أعطوا القوس باريها"
وهتفت إنّ الشمس بازغة وهتفت إنّ الله راعيها
ألقمت لا أدري به حجراً وشبعت تقريعاً وتسفيها[25]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصلت به المعاناة –كما يوضح لأمه– حدا لا يطاق فهو يعيش في ظل الرهبة والألم، وسط أناس يدورون حيث دارت مصالحهم، لا يهمهم وطن ولا أهل، وأمله تتجاذبه أعاصير المحنة والضغط، الذي يلقمه حجرا كلما نبت في نفسه شعاع من الأمل.

أُمَّاه لكنّي على ظمأٍ وجوانحي لا بدَّ أرويها
ما دامت الآيات تغمرني وأنا بكل العمر أشريها
وأرى هناك الحلم مئذنةً وأرى طيور العشق تفديها
لا بدَّ من يومٍ أؤوب به وعصاي في بيتي سألقيها[26]

ومع ذلك الألم وتلك المحن والشدائد يؤكد –لأمه– أنَّ الأمل ما زال ساكنا في قلبه، وأحلامه بالعودة والتمكين ما زالت مرفرفة في مهجته، وسيلقي عصا ترحاله في بيته الذي أحبه، ووطنه الذي يهفو إليه "ويبقى الإنسان الفلسطيني في منفاه دائم الحنين إلى أرضه يجذبه صوتها ويشده إليها، ولكن السياج العتيق يقف حائلا دون مواصلة السير إذا أراد أن يغذَّ الخطى، كلما جلجل النداء الأرضيُّ في أعماقه، فلا يجد من وسيلة، يخفف بها من معاناته، وبعده عن دياره إلا الدموع، ونار الشوق تضطرم في الأعماق"[27]

واستمرارا لحنين الشاعر وشوقه في بعده عن الأهل، يصور الشاعر حنينه لأمِّهِ بعد أن ابتعدَ عنها في رحلة سفره حيث يقول في قصيدة الصوت والصدى[28] :

أمِّي فديتُك أين أنت؟ كم ذا سألتُ فما أجبت!
الزيتُ في القنديل جفَّ وأنت قنديلي وزيتي
أمي أما زالت نجوم اللو ز ترقص فوق بيتي؟
ومســــــارحي وملاعبـــــي ورنين قافيتي وصوتي؟
(عَشْرٌ) مررن وما رجعتُ كما ظننتُ، كما ظننتِ
(عَشْرٌ) وما في الأفق رائحةُ القرنفل يا لموتي!!
في الليل طاف بي الخيال وكنت أولّ من عبرتِ
ورجعت للماضي الحبيب أضمُّ فيه أخي وأختي[29]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمُّه حياته ومعين ذكرياته، هي محضن طفولته وأحلامه، وبعد غيابه عنها عشر سنوات يشعر بالأسى والعذاب، ويحيط به الموت والضياع، فلا يجدُ إلا التَّذكارَ سَبيْلا يُهَدْهِدُ فيه آلامَ نفسه، ويسكن فيه لواعجَ الشَّوْقِ والحنين، ويواصل في الأبيات المتبقية من القصيدة تأكيد تلك المعاني، فهي (نبع الحنان، وضياء العين، وجنة الكلمات، وفوح الزنابق) ثم يصور أمه الملتاعة في لحظة الرحيل حيث يقول:

ما زلتُ أذكر يوم قلت دع الرحيل ويوم صحتِ!!
وتشبّثت يمناك بي وبكيت آه كم بكيتِ!!
وتبعتني للباب ضجَّ الباب خلفك إذ عثرتِ[30]

مشهد درامي واقعي مؤثر يصورُ حالَ الأُمِّ التي تتعَذَّبُ عندَ لحْظَةِ الوَداع، وهي تمسك بيد ابنها في لهفة وكأنَّها ترجوه رجاء ألا يرحل ويفارقها، فهو فلذة كبدها، وفي مثل هذه الحالة تكون مشاعرُ الأمِّ لحْظَةَ الفِرَاقِ أشدَّ منْ مشاعر، لذلكَ يمنح مشهد تعثر الأم عند الباب وهي تودعه للمشهد دلالة مأساوية درامية، تعمق دلالة الارتباط ارتباط المرأة/الأم بابنها، وتشي بمأساوية المشهد الفلسطيني. ويواصل الشاعر في باقي القصيدة تصوير علاقة الابن الشاعر بالمرأة/الأم، ويعدها ألا يطول به الرحيل، ويؤكد لها أنه سيعود، ويحط عصا ترحاله، في وطنه حيث تنتظره الأرض والحقول، لم لا؟! وهو مشتاق يملأه الحنين للأهل والوطن، شوق العصافير للأغصان؛ فقد ملَّ الرحيلَ والاغتراب، وزادَ شوقُه الأكبر لأمه التي ربته فهي كما يقول الشَّاعِرُ مخاطبا أمَّهُ:

أماه أنت من اللآلي والزمرد... أنت أغلى[31]

المرأة الزوجة

وتنوعت الأشكال التي برزت من خلالها المرأة في شعر محمود مفلح، فهي حاضرة في عنوان ديوانه المسمَّى (ابتسمي ليخضرَّ الكلام) بوصف العنوان العتبة الأولى التي يلج المتلقي منها إلى جوانية النصوص، فالمكوّن التركيبي للجملة المفتاح (ابتسمي) جاء فيه الفعل مسندا إلى ضمير المخاطبة الياء، مقترنا شرطيا لديمومة الحياة ونضارتها بعلاقة السبب ونتيجته، (ليخضرَّ الكلام)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فدالّ لام التعليل هنا تبرز طبيعة الطلب الذي يربط ربطا بنيويا بين المكونات، لمنح النصِّ إشعاعا يبرز جو الأنوثة في واقع المرأة/صنو الرجل التي تمنحه الحياة الحقيقية، وفي الفعل (يخضرَّ) ديمومة واستمرار للنماء بوصفه فعلا حاضرا ومستقبلا، وبوصف مكونه اللونيّ رمز الخصب وتدفق الحياة. وفيه صوت الراء المتكرر، وشاية بمساحة من التواصل والتكرار،(والكلام) هنا هو مكون النسق الشعري من جهة، ومكون التواصل البشري- بما يحمله الشعر من رسالة الخير والجمال- من جهة أخرى. فالمرأة -منذ بداية العنوان- حاضرة في وشاية الدلالة بوصفها دافعا للقول الشعري وخصوبته. والمرأة/الزوجة أيضا حاضرة في الإهداء الذي قدمه الشاعر إلى زوجته، حيث يقول:

إلى التي رافقتني في رحلتي الطويلة الشاقة،
وهي تحتمل فوضاي ومزاجي المتقلب،
وانشغالي بالقصيدة عن أي شيء آخر
فضجرت واحتسبت وبهذا هي التي كتبت
القصيدة الأنقى والأرقى
إلى زوجتي أم حسان"[32]

صورة من صور الوفاء تضع المتلقي على مشارف الديوان بعد العتبة الأولى؛ فالإهداء عتبة من العتبات التي تسهل على المتلقي الولوج إلى أفياء النص، ليستكنه مكوناتها الجمالية.

المرأة/الزوجة هنا هي صاحبة القصيدة الحقيقية بما قدمته من دفء وحنان، للزوج المسكون بهم الشعر، فكأنها هي التي كتبت في الحقيقة، وهذا شكل من أشكال الوفاء للمرأة التي شاطرته عمره وصبرت عليه واحتملت انشغاله بقضيته الشعرية.

ولا يقتصر ذكر المرأة لدى الشاعر على أمه رمز كينونته ومنطلق حياته، وزوجته معين سعادته الذي لا ينضبُ؛ بل يمتدُّ إلى الأبناءِ والأحفاد، وهي حالةٌ طبيعية، فالأبناء والحفدة امتداد للمنبع الأول ومعين السعادة، يفرح لفرحهم، ويشقى لأوجاعهم، وتتمزق نفسه على رحيلهم.

الابنة

حين انتقلت الطفلة (أمامة) ابنة الشاعر إلى الدار الآخرة، عن عمر يناهز الست سنوات، رثاها رثاء مريرا، في قصيدة (أين أين)[33] وفيها يقول بمرارة الملهوف الحزين:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أين أثوابها وأين دُماها أين ما قد جلبت في الأعياد
أين أين الشرائط الحمر يا بابا وأين الفستان ذو الأوراد؟
أين بنطالُها المزين بالسمك الأصفر والقبّرات والصياد
أين أقراطها الحبيبة والطو قُ المفدّى هدية الميلاد!!
أين سهراتنا الرغيدة في الصيف أجيبي يا رحلة السندباد
أين والصمت لفَّني يا حبيبي واستحالت قصائدي كالرماد
كيف ضاع الشراع في رحلة العمر وغابت عن مقلتي شهر زادي

يبرز التكرار الرأسي لدال اسم الاستفهام (أين) بمتغيرات المسئول عنه في الأبيات الستة السابقة، عنصر الألم ومرارة الفقد، ولوعة الفراق، الشاعر يتذكر لحظات الفرح والبراءة، وتتراءى في مخيلته ألعابها ودماها وملابسها الملونة، وأقراطها، ويلفه صمت الأسى فتحترق مشاعره حزنا على فراقها ويطويه تيه يعصف بسفينة حياته، إنها لحظة فراق مريرة لا يكاد المرء ينساها لأنها تحفر في قلبه مسارا للوجع الدامي.

الحفيدة

وكما برزت صورة الأنثى في لحظات الحزن والبكاء، وانثيال الذكريات، ها هي صورة الأحفاد تطلُّ من ثنايا شعره، وتغمره بفرح حيث يقول في قصيدة (حفيداتي) حيث يقول:

لولاهما ماذا أقـول وقد ألحّ علي نزفي
ورأيت ضعفًا في كياني كلّه.. وبكيت ضعفي
وأقولُ كلُّ دقيـقة من سوء هذا الحال ... يكفي!
لا غيمةُ تنهى إذا هطلت عليَّ أوان صيفي!
فأراهما حولي فأبصر كُوّتين بسقف كهفي
وأرى الربيع يمسّ قافيتي فيزهر فيه حرفي![34]

البنات يتمِّمْنَ جمالَ الزينة، وروعة المشهد في حياة المرء وبهجتها، والطفلتان حفيدتا الشاعر ملأن –بإطلالتهما– حياته أملا بعد ألم، وسعادة بعد أسى، وقوة بعد ضعف، فلما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أقبلت الطفلتان (جنى وميس)[35] إلى الحياة امتلأ كيانه تفاؤلا، بعد أن ضعف وكاد يستسلم للوهن والإعياء.

المرأة الجميلة

لم تقف صورة المرأة عند حدود التصوير الأسري؛ بل إنَّ صورة المرأة/ الأنثى نبع الجمال لم تغب عن ذهن الشاعر، فهو إنسان يشعر ويحس؛ ولكنه إحساس الملتزم العفيف، ففي قصيدته ظبية الشآم يبرهن الشاعر على إحساسه بالجمال، الذي يراه من زاويته الإنسانية بعيدا عن النزوات حيث يقول:

منطق رائعُ ورأي أصيلُ وكمال الجمال وجه جميلُ
إنها ظبية الشآم وفيها من كنوز الشآم شيء مهولُ
فإذا أقبلت فغيمة عطرٍ وإذا حدّثت فشهد يسيلُ
جرأة تحرجُ الرجال ورأيٌ مستنير وحجة ودليلُ
إنما ضجّت الأنوثة فيها كرزٌ ناضجٌ وورد خجولُ
لم يزدها الكلام إلا بهاءً حين تحكي وللكلام أصولُ
لا تقلْ حين تستميلكَ لانتْ ظبيةُ الشآمِ صيدُها مُسْتَحِيلُ"[36]

يمتدح الشاعر في المرأة الدمشقية، بل الشامية عموما،- وقد تربى في أحضان الشام دهرا من عمره- يمدح فيها: منطقها، وعلمها، وجمالها، ورأيها الذي يزيده جمال الوجه بهاء ونضارة، وفي التقديم الذي بدأه في استهلال القصيدة تشويق ولفت انتباه وإثارة؛ ليدفع المتلقي للتساؤل عن صاحبة المنطق وأصالة الرأي وجمال الوجه، ولا يمكث كثيرا حتى يصرح قائلا (إنها ظبية الشام) مؤكدا القضية ليبرهن على حقيقة ما يقول، ففي الظبية/المرأة الجميلة من كنوز الشام مختزنات ثرية، متنوعة، فهي صاحبة الرائحة العطرية الأخاذة الخلابة، صاحبة الكلام الناعم الغنج الذي يفيض كالعسل، في تجسيد للكلام المنساب من شفتيها، محوطة بهالة من العطر الزكي، وهي مع ذلك امرأة جريئة رأيها يصيب الرجال بالحرج حيث تعجزهم عن الرد، بما تملك من رأي وحجة، يضاف إليها جمالها الجسدي (فشفتاها كحبات الكرز الأحمر الناضجة حلوة المذاق، وخدودها التي تتورد خجلا) وكلامها حين تتكلم يزيدها جمالا وبهاء، فهي لا تلقي الكلام جزافا، وإنما تحتكم إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قواعد الحكمة والتقاليد حين تتحدث. ومن ظن أنها سهلة المنال، عليه أن ينتهي عن وساوسه، فهو يحدثه في نهاية القصيدة نازعا ما يمكن أن يتسرب إلى نفسه مما يراه من نعومتها وليونتها، ورقة كلامها وجمالها، حيث يؤكد أنها ليست فريسة سهلة المنال؛ بل إن صيدها والإيقاع بها أمر مستحيل، وبهذا يؤكد شرفها وعفتها. فالمرأة الشامية وفق القصيدة تجمع بين الجمال بمكوناته المعنوية والحسية، والعفَّة وبعد المنال. وفي إحدى تساؤلاته في قصيدة (أسئلة عراقية) يقول:

"لمن خلق الله هذا الجمال وتلك الورود التي تعبقُ
لمن خلق الله سحر العيون وتلك القلوب التي تخفق
لمن خلق الله هذا العراق الذي كان يوماً عراقا يعرقُ[37]

وكأنه يعيدُ إلَيْنا عبْرَ صورة المأساة العراقية، الجمال العراقي في مفارقة موجعة، تتناص مع رؤية علي ابن الجهم في رؤيته للجمال العراقي زمن العزة والكرامة، وهو يقول:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري[38]

في مشهد مؤلم يصور الشاعر تجليات المأساة، كأنَّه يقولَ: إنَّ المآسي التي تحلُّ على العراق وأهله لا تليق بما وهبه الله تعالى لهذا البلد الجميل من طبيعة خلابة وجمالٍ فتَّانٍ، ويستنكرُ على أهله تفريطَهُم في الجَمَالِ الذي مُنحوه فضيعوه بالفتنة والصراع الطائفي.

لتتجلى المرأة بجمالها رمزا لكينونة الوطن، وبهائه ونمائه، فهي رمز للخصب والبقاء، وهي تمنح الرجال طاقة يستمدون منها قوتهم للدفاع عن الوطن المضيع.

المرأة المتصابية

وتأكيدا على طبيعة التزام الشاعر ورؤيته صورة المرأة وطبيعة ما ينبغي أن تكون عليه، يقدِّم في قصيدة جوازات صورةً مختلفةً للمرأةِ حيث يقول:

"كلّ شيء يجوزْ
غير تلك العجوزِ التي تتصابى
ويصفعك الغنج في صوتها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتزعم أنَّ لديها.. كنوزُ!![39]

هي نموذج للعجوز التي تتصابى، وتغرقُ نفْسَهَا في سيل من المساحيق، وأدوات التجميل لتخفي تجاعيدها، وتتغنج في صوتها، لتغوي السامع، وتوهمه أنّ لديها كنوز من ملامح الجمال الأنثوي، وهي لا تمتلك سوى صوتٍ جميلٍ غَنِجٍ يستثير من سمعه، ولا يرى قبح صورتها وتكلف تصابيها، وكما قال بشار بن برد:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقةٌ والأذْنُ تعشقُ قبلَ العينِ أحيانا[40]

قدْ تكونُ صورةُ المرأةِ –هُنَا– نموذجا رمزيا للسُّلطة الحاكمة التي هرمت في كثير من البلاد العربية، وتحاول أن تقدم نفسها نموذجا للنشاط والجمال، والحيوية المزيفة، ورمزها حاكم سيملأ الأرض عدلا وخيرا، وهو في الحقيقة لا يمتلك سوى الهم والفقر والقبح، مهما حاول أن يزين أفعاله القبيحة. وقرينة توجيه الدلالة هذه الوجهة المحتملة قوله في المقطع التالي:

"كلُّ شيء حسن
غيرَ تلك البلاد التي تزرع القمح عاما
وتحصدُ في كلِّ يومٍ.. فِتَنْ
كلُّ هذا ابتلاء
شقاءٌ وفقْرٌ وذلٌّ.. وداء
ولكنني أسألُ الآن
ما شأنُ هذا الحذاء!؟[41]

فالبلاد تعيش حالة من الفقر والفتن والبلاء، وفي سؤاله الذي يختتم به المقطع يعود إلى صورة الأنثى المتصابية التي تلبس حذاء لتبرز فتنتها وهي تظن أنها تمتلك كنوزا، والصورة سياسية مقترنة بحالة السلطة الحاكمة التي تمثل على الشعوب. وبذا تكتسب صورة المرأة بعد رمزيا عميقا. وفي حالة القهر التي تعيشها الأمة يخاطب الشاعر المغنية أم كلثوم التي لقبوها كوكب الشرق، حيث يقول:

"يا أمَّ كلثوم اصمتي
ما عاد يسكرنا الغناء، ولا يليق بنا الغرام"[42]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في خطاب الشاعر يبدو كأنَّه يمنع الغناء والحبَّ، وكأنَّ المرأة لم تعد تستهوي الرجال في زمن الدماء والضياع؛ ولكنَّ الأمر محدد المعالم، فالرؤية تتجلى وتبرز معاملها عنْدَ مواصلةِ النَّسَقِ الشِّعْرِيّ، يقدم مبررا حيث يقول:

"يا أمّ كلثوم
القضية أننا نأتي إلى المقهى
ونقضي ساعةً أو ساعتين لنستريح من الصراخ إلى الصراخ
ونستجير من الخصومة.. بالخصام
لكنّها الأقدام تتبعنا
ويجلس بيننا الأطفال والأسمال
تجلس بيننا الأحوال والأوحال
والطلبات والطلقات
والأنصابُ والأزلام"[43]

القضية باختصار قضية مأساةِ شعبٍ عربيٍّ مضيَّعٍ، يُحَاوِلُ أنْ يُزْجِي أوقاتَه باللهو في المقهى، ولكنَّ المأساةَ تلاحقُه حتَّى في لحظاتِ تزجيةِ الوقتِ والتَّسْلِيَةِ، فملامحُ الخصومةِ تطلُّ ومعَها ملامحُ الفقر (الأطفال/ الأسمال) وملامح الحرب(الطلقات) ومظاهر التسلط والقمع (الأنصاب / الأزلام) وهكذا يصبح الغرام أمرا غير لائق في هذا الخضم المشوب بالآلام والخصومة والضياع والقمع. وبهذا يكون قد قدم بين يدي قضية رفضه لاستحقاق الغناء والغرام، ويطلب من أم كلثوم أن تصمتَ، وخطابه موجهٌ لها عبر مذياع المقهى الذي يجلس فيه لمسامرة الأصحاب، لا لكونه منزوعَ المشاعر، ولا يحسُّ بالجمال، ولا يهتز قلبه بمظاهر الجمال؛ بل لأنه صاحب قضية وطنية سامية، لذلك يصرح في المقطع التالي بحقيقة المشاعر الإنسانية الصحيحة التي يعيشها حيث يقول:

يا أم كلثوم،

القضية أننا بشرٌ

نحبّ الشمس والعشب الذي ينمو على مهلٍ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصوت الناي والمرعى

وبسمة زوجة وقفت بباب البيتِ

ترقب زوجها المغموس بالبشرى

لتنزع شوكة من كفه اليمنى

وتغرس وردة في كفه اليسرى

وتروي قلبه الظمآن..!

فينسى كلَّ ما عانَى"[44]

يؤَكِّدُ الشاعِرُ حبَّهُ للحياة والشمس رمز الحياة، وصوت النَّايِ رمز الجمال، وابتسامة الزوجة، التي رسم لها صورة المرأة المشاركة الحانية، التي يميل إليها ويحبها، هي امرأة تحنو على زوجها وتشاطره متاعبه وتخفف عنه همه بعد يومه الشاق، فتهدهدهُ، وتزيل عنه ما علق في يديه من أشواك اليوم المرهق، والأشواك رمز للمتاعب والآلام والمشقة التي تكبدها الرجل في يوم عمله الشاق، وتزرع وردة في يده اليسرى والوردة ترمز للحب والحنان ودفء العلاقة الزوجية، التي تتجسَّدُ في صورةِ المرأة التي تمنح زوجها بهاء أنوثتها، وتفيض عليه هناءً وحبّا، وتدرك أنها بفعلها حين تنسيه هموم يومه ومشقته تقدم السعادة للبيت والأسرة، فيقدم لها ولأبنائها السعادة وحينها:

"فينسى كل ما عانى

وينثر قمح فرحته.. على الأطفال والجدرانْ

ويغدو البيت بستانا"[45]

هذه صورة المرأة/ الزوجة صنو الرجل ورفيقة دربة ومصدر راحته ومؤنس وحدته وفيض حبه وسعادته. فقد اتخذ الشاعر طريقة المفارقة التصويرية في الوصول من المرأة/ الفنانة، بما تحمله من رسائل وقيم لا تتساوق مع طبيعة المجتمع، في ظل حالة الضياع التي تعاني منها الأمة، وصولا إلى صورة المرأة/ الزوجة برسالتها السامية، وقيمها النبيلة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي سياق النَّسَقِ الشعري الذي سار عليه الشاعر يبرز موقف يتجلى فيه ذمُّه سلوكياتٍ تمارسها بعض النساء المصتابيات، حيث يقول في قصيدة (نساء):

وأسوأ من رأيت نساء قومٍ إذا عطرتهن رشقن شوكا
وإن أفردت في شغف جناحًا لأعلي شأنِهِنَّ هبطْنَ دركا
وإن تنقل لهُنَّ حديث صدق يقلن سمعنه... زورا وإفكا
فإما أن توقع صكَّ حُرٍّ تفك به قيودَ الأسر فكا
وإما أن تظلَّ رهين قول "ألا فاصبر فإن الصبر أزكى"[46]

يتَّضِحُ من القصيدة موقف الشاعر من غدر النساء، فبعضهن لا يستحقُّ التكريم، حيث يحاول المرء أنْ يعلي من شأنهنَّ بدلالة (إذا عطرتهنَّ) (أفردت في شغف جناحا) ولكنَّ ذلك لا يفتح قلوبَهُنَّ للإخلاصِ والثِّقةِ، بلْ ينزلنَ إلى حضيض الغدر، وأسفل درك الانحطاط، والكذبُ متغلغل في أحاديثهنَّ، فما على المرء إلا الانعتاق من أحابيل أمثالهن في العلاقات الاجتماعية.

المرأة الملهِمَة

الشَّاعِرُ لا يرى في شعر الغزل، وتصوير العواطف والمشاعر السامية، أمرا مشينا، بل يعده مما يتناسب مع طبيعة الحياة وجدلية العلاقة الطبيعية في إطارها الجمالي السليم، ففي قصيدة نساء يبرزُ الشَّاعِرُ انعكاسَ شعر الغزل على فئة من المنغلقين الذين يطلُّون على العالم من خرم إبرة، ولا يقدرون قيمة المرأة الحقيقية في المجتمع، حيث يقول في قصيدة (نساء):

إذا قلت شعرًا في النساء تعجبوا وأسأل من قد لام فيهن ما العجبْ!؟
أليست حياة المرء من غير مرأةٍ جحيمًا ولو ألقى رداء من الذهب!؟
وإني أرى أن النساء جنانكم وهن لعمرو الله أغلى من الذهب
إذا قلت وارأسي أنتك بكفهِّا كنخلةِ تموز تساقط بالرُطب..
فيشفيك ربي من حرير بنانها وثغر كعنقود يضجّ به العنب!

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حديقة ورد حين ترضى وحينما تُعاند فاعلَّم أن شرًّا قد اقتربْ!
فكن غيمةً من حَرِّ شمسٍ تُظلُّها تكنْ كنزكَ الأغلى, فسبحانَ من وهب[47]

يجيبُ الشَّاعر جمعَ المتعجبين اللائمين، بطريقة الاستفهام؛ ليقرر في أهانهم حقيقة كينونة المرأة التي تعادل نصف المجتمع، وتعد ربيع حياة للرجل، فهي جنته في الدنيا، وهنّ اللائي يمنحن الحياة قيمتها ويكسبنها رونقا ونقاء، ويجلن الوجود جنة وارفةً ظلالُها، يُغْدِقْنَ جمالا وخيرا وحبا وحنانا إذا مس الرجل ألمٌ، بأيديهن الحانية، وقلوبهن الوارفة الراضية، فمعسول كلامها شفاء، ولمس حنانها دفء وسكينة، لذلك على المرء أن يحافظ على هذه الجنة، ويحرص على رضاء من تسبب في وجودها، وألا يغضبها؛ لأنَّ في غضب المرأة تحوُّلا وانزياحاً من الجنَّةِ إلى جحيمٍ لايطاق، فمن باب أولى ألا يستنكر المتعجبون على الشاعر ذكره المرأةَ في شعره.

تتجلى صورة المرأة إذن في الشعر، بوصفها ملهمَةٌ تجود بجمالها القريحة، كما جادت بها بوصفها أما وأختا وحفيدة وامرأة عفيفة، كما يقول في قصيدة (ملهمة):

عشرون فاتنةً مرّت على لغتي فلم تثرها ولم تشعل بها قبسا
لما مررت بها صارت مؤنثة وصار قلبي في أضلاعه جرسا!
كأنّ في الحرفِ لمَّا أن نطقْتَ بِهِ مسًا وأنَّ بهِ من دهشةٍ خرسا
ما كل أنثى يراها الشعر ملهمةً تحيي بأغصانه ما كان قد يبسا!
فبعضُهن إذا قالت أقول: كفى وبعضُهن تردّ الروحَ والنَّفَسَا..!!
والشعر يُغدق إن وافتْهُ مغدقةٌ والشِّعْرُ يقسُو إذا قلْبُ الحبيب قسا![48]

هو الإحساس بالجمال، ورقةُ المشَاعِر التي يصور بها الشاعر الفرق بين أنثى ملهمة بشجي ما تعطي من القيم الصوتية، فتبعث في النفس حياة وأملا، وتحيي ما جف من معين حياته كما يمنح الماء الأغصان المتيبسة حياة ونماء، وأنثى لا يستطيع مواصلة الاستماع إلى حديثها، إن الشعر يجود وتنثال صوره، إن كان وراءه ملهمة تجود بالحبّ، ويقسو إن قست ملامحها، كما يصرِّحُ بالحكمة في البيت الأخير.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وامتدادا لقضية الأنثى والغزل يبين الشاعر موقفه من شعر الغزل، حين يردُّ على لائميه، في قصيدة (غزل) مبينا أسباب عزوفه عن الغزل حيث يقول:

قالوا هرمتَ ولم تكتبْ عن الغَزَلِ ولم يُثرْك نداء الكحل في المقلِ
فكفَّة الحب في الميزان راجحة وطعمه في شفاه الناس كالعسل
تبقى القصيدة دون العشق يابسةٌ والشعر دون لحاظ الغيد كالطلل
وسوف تبقى غريب الشعر منعزلاً ولو وصلت إلى المريخ أو زحلِ
والناس تسكرها في الشعر قافية تفوح بالغنج والاغراء والقبل
وكل شعر بلا "هند" و"عاتكة" وعطر "ماويةٍ" ادعى إلى الفشل
وأنتَ شعرُك يا "محمود", مكتئب فليس فيه سوى الأوجاع والعللِ49

اللوم المغلف بالنصح واضح في فحوى القطعة الشعرية، فالشاعر لم يستجِبْ لدَّوَاعِي الغَزل الصريح، وبواعث الغرام بتصوير جمال العيون والشفاه، وشذا عطر الغيد الفواح ، وجمال الخدود

فقلت هذا نصيبي لم أكن غزلاً كمْ ذا سعيت فلم أدرك ولم أصل
إنّ الفجيعة قد غطت على لغتي وإن كارثتي قد ضيقت سبلي
حتى غدا الشعر عندي صوت نائحةٍ وصار دمع الثكالى فيه من جملي
وصار كل يتيم نبض قافيتي وصارت النكبة السوداء من شغلي
تمر "دعدُ" فلا تغري أنوثتها مرَّ السحابة أو مرّت على عجل!
هذا هو الحال منذ الشعر أدركني من أول الجرح حتى قمة الفشل50

تشي الدوال التعبيرية (الفجيعة- غطت- كارثتي- دمع الثكالى- الجرح- الفشل) في الأبيات، دوافع الشاعر لتجنب الغوص في شعر الغزل، والهيام في بحور الحبِّ والغرام، فقضية وطنه ومأساة رحيله، وأنَّات شعبِه المعَذَّب، تشغلُه عما سواها، فاليتم وشاية بالموت والشهادة، وكذلك الثكالى تعمق الفاجعة، التي تتقطر الدموع خلالها ألماً، فلا يحفل بأنوثة دعد ولا هند، وكأنَّه بذكر دعد هنا يحيل المتلقي إلى قول الشاعر:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لهفى على دعد وما خلقتْ إلا لطول تلهُّفي دعدُ
بيضاء قد لبس الأديمُ بها ء الحسن فهو لجلدها جلدُ
ويزين فوديها إذا حسرتْ ضافي الغَدائر فاحِمٌ جَعْدُ
فالوجه مِثْل الصُّبْح مُبيضٌّ والشَّعْر مثلُ الليلِ مُسْوَدُ
ضدانِ لما استجمعا حسنا والضدّ يُظْهِرُ حُسْنه الضِدُّ51

فمهما كان الجمال التي وصفت به دعد/ الرمز، لا يتحرك الشاعر نحو مفاتنها، لتلك الأسباب، التي حلت به وبشعبه المشرَّد، وهذا تأكيدٌ عَلَى سُلَّمِ أَوْلَوِيَّاتِ حَالتِه الشِّعْرِيَّةِ مُنْذُ بِدَايَتِهَا، وفيه رسالة مضمَّنة للشعراء ألا يغفلوا قضايا المجتمع الذي يعيشون فيه.

ورغم ذلك فإنَّ الشَّاعِرَ لا يغفلُ حقيقةَ كونه إنسانا ينبض بين جوانحه قلبٌ يفيضُ بالمشاعر والأحاسيسِ، لذلك يلجأ إلى خطاب حبيبة متخيلة يعاتبها فيقول:

لماذا ترحلين وأنت عندي كنوزٌ لا أزال بها ضنينا!
إذا أيقظتُها أجريتُ نهرا وروّيت الأضالع والعيونا!
ولي فيها قصائد مترفاتٌ وقافيةً ترّن بها رنينا!
وشعرٌ كاد يصرخ ملْ ثغري حرام أن أظلّ به سجينا
إذا أطلقته آنست نارًا وبدّلتُ اللظى مطرًا حنونا
فهل أنسى وعينك ملء عيني مساء لا يزال يغصّ فينا!!
وفنجانين يرتعشان شوقًا ودالية ً ووجها ياسمينا!؟
فكيف تركتُها تمضي، ويمضى فؤادي نازفا يقفو السفينا52

نبرة العتاب تبْرِزُ الجانبَ العاطفيَ الَّذيْ يتمتع به الشاعر، فالحبيب الولهان يتخيل محبوبته التي تعادل عنده كنوز يضن بها ويغار عليها، فدوال أسلوب الاستفهام في البيت الأول فيها استنكار لرحيل المحبوبة وهجرها، يتلوها دوال الأسلوب الخبري (وأنت عندي كنوز) تبيّن قيمتها في قلبه، ويتمادى في تخيل علاقة الغرام ولواعج الشوق، فكأنه كان يسطر فيها قصائد تلو القصائدِ

الخاتمة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعدمقاربة متأنيةٍ لشعر محمود مفلح، خلصت الدراسة إلى أن قضية المرأة لم تغب عن شعر محمود مفلح، حيث تداعت في عدة تجليات تؤكد أن الحسَّ الإنساني لا يفارق الشاعر الفلسطيني ابن القضية، فالأم والزوجة والابنة والحفيدة برزت في شعره، فرحا وأملا وشوقا وحنينا تارة، ووجعا وآلام فراق، وندوب اغتراب تارة أخرى، كما تجلت في صورة المحبوبة الملهمة التي تعادل كنوز الدنيا حينا، والمعشوقة المتخيلة التي يذرف على عتباتها شعر الشوق والحنين، من جهة، ويعاتب الذين يلومونه على مشاعره وما نثر على عتباتها من قصائد، كما سجل شعره موقفا من المرأة اللعوب والمخادعة. ونحا باللوم على أهل الفن الذين لا يأخذون بعين المراعاة قضايا الأمة المصيرية.

وفي ذلك كلِّه تتجلى أحاسيس الشاعر الإنسان، الذي لا يتنكَّر للطبيعة الإنسانية، فهو عاشق الجمال، محبٌّ الفضيلة، يؤمن بكينونة المرأة في طبيعتها السامية، وجمال روحها، وكونها الملهمة، ورفيقة الدرب، وشريكة الحياة، ومسبار المشاعر، ونبض القلوب، وهي حاضنة الآمال، مهدهدة اللواعج، وفوق هذا كلِّه هي الأمُّ الحانية المربية، التي تتأرق لمواجعه، وتحن للقائه بعد طول ارتحال، وهي الأخت والابنة نبع الحنان، والحفيدة رمز الأمل وحلم المستقبل المشرق، في وطن محررٍ يلم شتاتَ المعذبين بعد طول اغتراب وارتحال.

الهوامش

[1] ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، تحقيق محمد احمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، 2006، ص76

[2] ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت، ص41

[3] علي بن أحمد الزهراني، صورة المرأة في شعر يحيى توفيق، (ماجستير) جامعة مؤتة، 2008، ص34

[4] امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق د عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، (د. ت) ص96

[5] انظر ديوان امرئ القيس، ص100، 101

[6] انظر ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2009م، ص98، 99

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[7] انظر ديوان النابغة ص99

[8] مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج3، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2010م، ص76، 77

[9] ديوان عنترة، تحقيق محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ص183، 184، انظر أيضا ديوان عنترة، تقديم، عبد القادر مايو، دار القلم العربي، حلب، ط1، 1999م، ص228؛ الزوزني، شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت، ص102 والبيت الثاني غير موجود في شرح الزوزني.

[10] ديوان عنترة، تقديم، عبد القادر مايو، دار القلم العربي، حلب، ط1، 1999م، ص230، شرح المعلقات التسع، أبو عمر الشيباني، تحقيق عبد المجيد همو، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 2001مم، ص240، 241 وفيها (فهممت) بدل (فوودت.)

[11] جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير ، تحقيق: د عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، ط1، 1997م، ص182، انظر أيضا شرح ديوان جرير، محمد إسماعيل الصاوي، مكتبة محمد النوري، دمشق، د.ت، ص199م، ينخوبية، التي لا عقل لها، وقبى: حمقاء.

[12] انظر: الفرزدق، ديوان الفرزدق، ضبطه د.عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بيروت، ط1، 1997م، ص499 المقصود الأبيات التي تبدأ بقوله: (لو أنَّ أمك يا جرير مكانها عندي...)

[13] نفسه، ص 553

[14] زهر العنابي، المرأة والقضية وجهان لوطن واحد، الرومانتيك للأبحاث والدراسات، عمان، ط1، 2004، ص51

[15] نزار قباني، الأعمال الكاملة، ج1، دار الخلود للشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013، ص18

[16] محيي الدين صبحي، الكون الشعري عند نزار قباني، الدار العربية للكتاب، ليبيا،1982م، 28

[17] المصدر نفسه، ص17

[18] محمود مفلح، الأعمال الكاملة، ج1، بورصة الكتب، القاهرة، ط2، 2018، ص 402

[19] قاسم حسين صالح، سيكولوجية المرأة العربية صراع الأصالة والحداثة، مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، ع10، 11، ربيع وصيف 2006م، ص 77

[20] سليم رهيوي، صورة المرأة في ديوان الساعر لمحمد جربوعة، (ماجستير) جامعة محمد خيضر-بسكرة 2015/2014، ص35

[21] محمود مفلح الأعمال الكاملة، ج1، ص315

[22] نفسه، ص316، 3017

[23] المصدر نفسه، ص317

24 الجلَّوز: الضخم الشجاع أو الشرطي والجمع جلاوزة. الجلواز: الشرطي والجمع جلاوزة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[25]المصدر السابق، ص317، 318

[26]نفسه، ص318

[27]محمد شحادة عليان، الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث، دار الفكر، عمان، ط1، 1987م، ص62

[28]الأعمال الكاملة، ج1، ص403

[29] نفسه، ص403

[30] نفسه، ص 404

[31]نفسه، ص405

[32]ابتسمي ليخضر الكلام، ص5

[33] محمود مفلح، الأعمال الكاملة، ج،1، ص131

[34] محمود مفلح، لا تهدموا البرج الأخير، بورصة الكتب، القاهرة، ط1، 2016، ص95

[35] الشاعر لم يذكر الاسمين في القصيدة، ولكني سألته عن اسمي الحفيدتين فأفادني به بتاريخ 5/ 12/ 2018

[36]محمود مفلح، ابتسمي ليخضر الكلام، ص9، 10

[37]ابتسمي ليخضر الكلام، 19، 20

38 ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1980، ص143،141

[39] ابتسمي ليخضر الكلام، ص11

[40]بشار بن برد، ديوان بشار، ج،2 تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، ص217

[41] ابتسمي ليخضر الكلام ، ص11

[42] ابتسمي ليخضر الكلام، 60

[43] نفسه، ص60، 61

[44] نفسه، ص61، 62

[45] نفسه، ص62

[46] محمود مفلح، لا تهدموا البرج الأخير، بورصة الكتب، القاهرة، ط1، 2016، ص94

[47] نفسه ص67، الأعمال الكاملة، ج2، ص362

[48] نفسه، ص77، والأعمال الكاملة ج2، ص374

[49] لا تهدموا البرج الأخير، ص118

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[50] المصدر نفسه، ص118

[51] علي بن جبلة (العكوك)، شعر علي بن جبلة، تحقيق دحسين عطوان، دار المعارف، القاهرة، ط3، د.ت، ص116

[52] لا تهدموا البرج الأخير، ص78، 79

المراجع:

1- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت.

2- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، تحقيق محمد احمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، 2006،

3- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق د عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت،(د. ت)

4- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2009م

5- بشار بن برد، ديوان بشار، ج، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2008م

6- جرير بن عطية الخطفي، ديوان جرير ، تحقيق: د عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، ط1، 1997م،

7- شرح ديوان جرير، محمد إسماعيل الصاوي، مكتبة محمد النوري، دمشق، د.ت،

8- ديوان عنترة، تحقيق محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت

9- ديوان عنترة، تقديم، عبد القادر مايو، دار القلم العربي، حلب، ط1، 1999م

10- زهر العنابي، المرأة والقضية وجهان لوطن واحد، الرومانتيك للأبحاث والدراسات، عمان، ط1، 2004

11- الزوزني، شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت، د.ت

12- سليم رهيوي، صورة المرأة في ديوان الساعر لمحمد جربوعة، (ماجستير) جامعة محمد خيضر-بسكرة 2015/2014

13- أبو عمرو الشيباني، شرح المعلقات التسع، تحقيق عبد المجيد همو، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 2001م

14- علي بن أحمد الزهراني، صورة المرأة في شعر يحي توفيق، (ماجستير) جامعة مؤتة، 2008م

15- علي بن جبلة (العكوك)، شعر علي بن جبلة، تحقيق دحسين عطوان، دار المعارف، القاهرة، ط3، د.ت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

16- علي بن الجهم، ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1980
17- الفرزدق، ديوان الفرزدق، ضبطه د.عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بيروت، ط1، 1997م،
18- قاسم حسين صالح، سيكولوجية المرأة العربية صراع الأصالة والحداثة، مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، ع10، 11، ربيع وصيف 2006م
19- محمد شحادة عليان، الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1987م
20- محمود مفلح، ابتسمي ليخضر الكلام، دار الأدهم، القاهرة، ط1، 2015
21- محمود مفلح، الأعمال الكاملة، بورصة الكتب، القاهرة، ط2، 2018
22- محمود مفلح، لا تهدموا البرج الأخير، بورصة الكتب، القاهرة، ط1، 2016
23- محيي الدين صبحي، الكون الشعري عند نزار قباني، الدار العربية للكتاب، ليبيا،1982م
24- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج3، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2010
25- نزار قباني، الأعمال الكاملة، ج1، دار الخلود للشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com